

الجامعة الإسلامية والمؤتمر الإسلامي

تمهيد — الرابطة الشرقية — الوحدة العربية — الجامعة الإسلامية — المؤتمر الإسلامي —
عوامل اللغة — العرب والإسلام — مقارنة بالمؤسسة المسيحية — شئون إسلامية أخرى .

تمهيد

تقوم في الشرق الآن نزعات وثابة ونهضات أخاذة ، ليس إلى دفعها من سبيل اللهم إلا
سبيل السيف والمدفع ، وهما سلاح العاجز الضعيف يحتمى بالباطل فيأبى إلا أن يؤوب بالفشل
والخسران ، وكذلك كان وسيكون دائماً شأن القوة العاشمة ، مهما سترت ضعفها ، وحاولت
إخفاء فشلها وهزيمتها عن العالمين .

حسن إذن أن يتنبه الشرق ، وأحسن منه أن يأتلف زعمائه ويتلاقوا على سرر متقابلين ،
فإن الحق الذي يجدر بنا ذكره ، هو أن الشرق لن يعود إليه مجده بأية حال ، ما لم يتعاون رجاله
ويتحد قاداته وتأتلف أممه . والحق أيضاً أن هذا الداء الوبيل — وأعنى به داء التفرق الذي
تغلغل في أجسامنا وبيئاتنا — محال أن يزول إلا بما قدمنا .

إن أمم الشرق هي الأمم التي فاقت غيرها منذ القدم ، وامتازت على سواها بالحرية والعيش
الرغد ، وقد كانت قديماً — مع اختلاف الطبائع والأذواق — متحدة الرأي ، مجتمعة الكلمة على محبة
الوطن وإعزازهم وإعلاء شأنه والدفاع عنه إذا مسه الأجنبي بأذى أو عادته الليالي والأيام . ومن
أراد أن يرى آثار الوطنية الحقة في الأمم ، ويعرف كيف توحد الميول وتجتمع العناصر المتفرقة
فليُنظر إلى تاريخ الشرق القديم ليعلم أننا جد صادقون .

وها هو الشرق قد تذكر مجده التالذ ، فأخذ يسعى بكل سبل السعى إلى تقوية أواصره وتجديد
دعائه ، وقد كان لمصر — وهي قلب الشرق النابض — نصيب وأى نصيب في هذه النزعات على
اختلاف أنواعها ، وتلك الرغبات على تباين أغراضها .

الرابطة الشرقية

فكان أن نشأت فيها جماعة (الرابطة الشرقية) تحقيقاً لفكرة نبيلة عمل عليها أولئك الذين
أسسوها ، وكلهم من قادة الفكر في الشرق ورجال الإصلاح الممتازين . على أن الذي يؤسفه
جد الأسف أن تلقى هذه الجماعة من غنت الظروف ، واختلاف مشارب أعضائها ، وتنازعهم
فيما بينهم وبين أنفسهم على من هو أحق بالرياسة وأجدر ، واختلافهم بل انعدام التجانس بين

أشخاصهم، وتعدد لغاتهم، وتباين أفكارهم، وتنوع ثقافتهم— أضف إلى هذا كله أشياء تافهة، وأشياء ليست بالتافهة: كاللال مثلاً الذي حرمت منه الرابطة إلا قليلاً، فلم يدهابه سراة الشرق بل قبضوا أيديهم عنها، والمال كما تعلم عصب الحياة وقلب المشاريع النابض — كل أولئك كان سبباً أو كان جماعاً للأسباب التي سببت إشراف الفكرة — فكرة الرابطة الشرقية — على الموت إن لم تكن قد ماتت فعلاً.

الوحدة العربية

إلى جانب هذه الجماعة قامت جماعة أخرى في هذا العام تدعو إلى الوحدة العربية، وتوحيد الثقافة بين أبناء الناطقين بالضاد، وربط البلاد العربية بعضها إلى بعض. فكانت في ذلك قوية بعض القوة، متمسكة ببعض التماسك. لكنها بالرغم من ذلك كله لم تقدر لها الحياة فكادت تشرف على الفشل إن لم تكن قد أشرفت فعلاً، وما ذلك إلا لوجود بعض الأسباب إن لم تكن كل الأسباب التي ذكرنا.

الجامعة الإسلامية

وها نحن الآن نسمع في الشرق الإسلامي كله نغمة جديدة، تلك نغمة الجامعة الإسلامية التي دعى إليها، وإلى القيام بتأسيسها، جماعات المسلمين في مختلف البلاد الإسلامية، على تباين لغاتهم، واختلاف نحلهم. وهذه النغمة التي نسمعها الآن ليست في الحق بذات اليوم، ولكنها — عند التحقيق — ترجع إلى أزمان بعيدة أقربها ذلك الزمن الذي رددناه فيه السيد جمال الدين الافغانى، والشيخ محمد عبده، والرحالة السيد عبد الرحمن الكواكبي، بل والمرحومان مصطفى كامل باشا، ومحمد فريد بك، إذا حورنا أفكارهما بعض التحوير. وإذن فقد قامت هذه الفكرة برءوس زعماء الشرق قبل الآن، لكنها لم تكن لتنتج بفعل دسائس المستعمرين وبشتم في الشرقيين — من مختلف الأديان — عدة دعايات وترهات ما أنزل الله بها من سلطان. والآن يعيد التاريخ نفسه، فما أن سمع المستعمرون وأذنانهم بخبر انعقاد المؤتمر الإسلامي الذي اعترم عقده، حتى هلعت لذكره قلوبهم، فأخذوا يحكيون حوله الدسائس، ويخترعون الفتن والترهات لفشله وإحباطه. لهذا تحذر الشرقيين عموماً — مسلمين وغير مسلمين — من الانخداع بهذه الترهات التي تشاع حول ذلك المؤتمر، وهو بعد جنين لم يولد، ونحتم إلى إجابة دعوته والعمل على نجاحه بكل ما فيهم من قوة، فأنا قد سئمتا الفتن، ومالنا لخداع. فأما حياة تبعث الميت في البلى وإما ممات لعمرى لم يقس بمات

أقول هذا، وأنا جدد والله، است بمطمئن إلى كل الأساس الذي قامت عليه الفكرة — فكرة انعقاد المؤتمر — وبعبارة أصرح فكرة « الجامعة الإسلامية » فقد كنت أرى أن تكون

هذه نتيجة لجامعتين : الأولى عربية ، والثانية شرقية ، وأنا مؤمن بما أقرر ، معتقد بأنه الطريق الوحيد للوصول إلى ما نبتغيه ، معشر الشرقيين ، مسلمين وغير مسلمين . أما بهذه الطريقة التي سلكها القائمون بالأمر فبعيدة التحقيق ، عسيرة المنال .

وإني لأرجو ألا يتسرع القارئ فيتهمنا بسبق الحوادث ، فلعلنا كنا من أول الذين علموا بالمسألة في بدء نشأتها . وقبل أن تخرج من حيز القول إلى حيز العمل ، ولعلنا من أول الذين سيلبسون الدعوة التي وصلتنا لحضور المؤتمر إن شاء الله .

وليس سرا أن نذيع على قرائنا أن أول رجل قام بالدعوة إلى فكرة انعقاد المؤتمر الأخيرة ، وفي هذه الآونة ، إمامها السيد عبد العزيز الثعالبي زعيم المغرب الأكبر . وقد دعا إليها عن طريق مجلته « المعرفة » في حديثين نشرأولهما بالجزء الثالث في يوليو سنة ١٩٣١ ونشر ثانيهما بالجزء الخامس في سبتمبر سنة ١٩٣١ . وقد كانا نتيجة لحديث دار بين كاتب هذه السطور وبين الاستاذ الثعالبي في دار « المعرفة » في الثالث من يونيو سنة ١٩٣١ ، بحضور العلامة الجليل شيخ العروبة احمد زكي باشا . وزعيم سوريا المعروف الدكتور عبد الرحمن شهبندر . والاستاذ الكبير محمد لطفي جمعة وغيرهم .

بل ليس سرا أن أذيع على حضرات القراء . أنني اقترحت على السيد الثعالبي عمل دعوة للرجال الممتازين في الشرق على اختلاف نحلهم فوافقني على عملها فعلا ، لكن حال دون إتمام ذلك سفر السيد الثعالبي إلى فلسطين لمقابلة السيد أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى ، والاتفاق على السير في الخطوة . فكان أن تقرر إقامة المؤتمر في القدس الشريف ، بدل غيره من البلاد الشرقية أو الغربية كما كانت فكرة السيد الثعالبي أولا . وصاحب الفضل في الفكرة .

وإذن فكلما في هذا الموضوع صادر عن بعض الخبرة ، إن لم يكن عنها جميعها ، وحديثنا منبثق عن ملاسبات لحل الظروف إن لم يكن للظروف كلها . ونحن نود — صادقين مخلصين — أن يتاح للأسلام من الرجال الصادقين ، والزعماء المخلصين ، والقادة المفكرين ، ما يحقق للأسلام مجده . ويعيد له سؤدده . وإذا كنا — في رجائنا ورغبتنا أن يتاح الفرصة لتحقيق هذه الأغراض — مخلصين صادقين ، فلسنا أقل صدقا ، ولا أضعف رجاء ، في أن يتاح لنا حرية القول وإن كان خطيرا ، وصراحة الرأي وإن كان فظيرا ، فرب كلمة خير من ألف .

على ضوء هذا الذي قدمنا نفجؤ القارئ منذ الآن فنقول له : إن الجامعة الإسلامية والمؤتمر الإسلامي : لن يعودا بالفائدة المرجوة مادام ابابا الصورة التي يبدوان بها ، بصورة بعيدة عما كانت تؤمله مصر ، وهيئاتها العلمية والدينية ، وعلى الأخص « الجامعة الأزهرية » . وما نظن أن الأزهر قد أصبح من الهوان بحيث يوضع في الدرك الحضيض الذي وضعه فيه أصحاب المؤتمر ، وإلا فلماذا

أعمل الداعون شأنه وتركوه وكان لم يكن في العالم الإسلامي شيء يدعى الأزهر؟
أصنف إلى ما تقدم ذلك الذي ذكرناه في أول المقال من أن هذا المؤتمر الذي يدعو إلى
« الجامعة الإسلامية » كان يجب أن يكون غاية لا وسيلة ، فقد كان خيرا أن نبدأ بالوحدة
العربية . ومن ثم الوحدة الشرقية ، وعندئذ ، وعندئذ فقط نستطيع أن ننادى بالجامعة الإسلامية ، بعد
أن تكون قد استأمتنا إخواننا المسيحيين ، وتعالقنا واليهود ، وترابطنا بالشرق كله . أما الآن
فمن يأس خيرا ؟ وأصابع المستعمرين تلعب ، ودسائس الصهيونية تحاك ؟
أنا مؤمن جدا بالآيمان بأفضلية الوحدة العربية الآن ، وبمعنى أوضح مؤمن بضرورة البدء
بها ، ومن ثم الشرقية ، فالإسلامية . ولقد ورد في الأثر « إذا ذل العرب فقد ذل الإسلام » .

العرب والإسلام

لقد جاء الإسلام وكانت تتنازع العالم سلطتان أو دولتان قويتان : الدولة الفارسية وهذه
كانت تملك الشرق ، والدولة الرومانية الشرقية . وقد كانت تحكم الغرب . فلما أن جاء هذا الدين
القيوم أوجد أمة من أشتات متفرقة ، فكانت « العرب » ولم تكن « الفرس » مثلا أو
تركستان أو الهند أو الأفغان .. فلما أن قويت شوكة المسلمين — وقد كانوا وقتذاك عربا —
انتشروا في أقاصي المعمور متدرجين متمشين مع سنة الطبيعة ، مبتدئين بالأقرب فالأقرب ،
فكان النجاح حليفهم ، والنصر أليفهم ، حتى بلغوا في أقل من الثمانين سنة ما لم تبلغه أمة من أمة
العالم — لافي القديم ولا في الحديث — في آلاف من السنين . أكنت ترى هذه الامبراطورية الهائلة —
وقد جمعها الدين في قانون واحد ، ولم شعنها تحت راية واحدة — تدين لغير العرب ؟ كلا ثم كلا .
لقد رأينا المسلمين — وقد قوضوا ممالك كسرى وقیصر ، ونشروا سلطتهم من حدود الهند حتى
شواطئ المحيط الأتليتيكي ، وهم في كل ذلك عرب لم يشب جنسيتهم تدخل عنصر أجنبي . فكانت
العصبية العربية سر نجاحهم ، كما كان العامل اللغوي سبب ترابط مملكتهم المترامية الأطراف .

عامل اللغة

فلما أن شرعت العناصر الأجنبية تنسرب إلى جسم المملكة الإسلامية دفعة واحدة ، ابتدأت
بوادر التفكك والانحلال تعمل عملها الهدام ، وأخذ كل عنصر من العناصر الجديدة يظهر نفسه
ويبنى لذاته دولة أساسها النعرة الجنسية ، فما كاد ينتهي القرن الثالث للهجرة حتى تعددت إمارات
المسلمين ، بالظفر إلى لغاتهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم المتنوعة ، فكانت النتيجة أن رمى العنصر العربي
سلاحه فأضاع سيادته السياسية بل والدينية أيضا . ولولا القرآن لاضمحلت اللغة العربية
وأصابها ما أصاب اللغة اللاتينية ، وكانت اليوم لغات متعددة لا يفهم ابن دجلة والفرات
ما ينطق به ابن وادي النيل ، ولا يفقه أهالي الجزيرة ما يتكلمه أهالي سوريا وبلاد شمال أفريقيا .

لم يقف التفرق عنده هذا الحد بل تعداه إلى الدين نفسه ، إذ تعددت فيه المذاهب والتحل بالنظر إلى اختلاف عقليات الأمم التي دانت به ، فظهرت الفرق وتعددت المذاهب وكثرت الملل ونشأت التحل . واعتز كل بفريقه وطرائقه المبنية على النظريات الفلسفية والمجادلات الكلامية ، وقام ضد هؤلاء آخرون بأرائهم وميولهم العنصرية الوراثة .

مقارنة بالمسيحية

وهذا ما حصل تماماً في الديانة المسيحية ، إذ أن ناموس الطبيعة واحد في كل زمان ومكان لا يرحم مسلماً ولا يشفق على مسيحي ، ولا يفلت من تأثيره موحد أو وثني . فما كادت المسيحية تنتشر في مشارق الأرض ومغاربها حتى أخذت العوامل الجنسية والميول العنصرية تعمل فيها ، فشطرتها إلى مسيحية شرقية وأخرى غربية : الأولى أورتودوكية والثانية كاثوليكية ، وعلى رأس هذه الأخيرة البابا الذي وحد أوروبا تحت سلطته ومسكها بيد من حديد مدة عشرة قرون ، كان فيها الأمر الناهي والمستبد المطلق الذي لا ترد له كلمة ، غير أن سلطته أخذت في التقلص لما شرعت الشعوبية تظهر في أوروبا فقامت مما لكها المتعددة وابتدأت تنفصل عنه سياسياً ودينياً ، فاشطرت الكنيسة الغربية إلى بروتستانتية وكاثوليكية ، واضمحلت سلطته السياسية تماماً ، وأصبحت سلطته الدينية في الممالك الكاثوليكية لا أهمية لها من الوجهة العمرانية . فهي لا تقدم ولا تؤخر في حيوياتها . لم يمنع حصول هذا وحدة الكنيسة الكاثوليكية ولا ترابط شرائعها وقوانينها ، ولا صرامة أنظمتها ، ولا الاعتقاد في قداسة سلطتها وتصفه رئيسها عن الخطأ . وعلى الماضي يجب علينا أن نقيس الحاضر والمستقبل . ففكرة الجامعات الدينية بفكرة بعيدة التحقيق ما لم تستند على مؤسسات جنسية أو جامعات لغوية . فالجتميع الانساني مؤلف من وحدات هي الأمم ، تفصلها عن بعضها البعض — الحواجز الجغرافية والتفاعم اللغوي . فالحوازر الجغرافية أخذت تضمحل بالنظر إلى انتشار سبل المواصلات الحديثة ، ولم يبق لدينا إلا الفاصل اللغوي الذي هو فاصل طبيعي يميز كل أمة عن غيرها من الأمم ، ويوحد الناطقين بكل لغة ويجعلهم يشعرون شعوراً واحداً ، ويتغذون غذاءً أدياً واحداً . وبناء عليه . إذا أردنا أن نهض بالشرق من كبوته ، والمسلمين من غفوتهم — أن نوجه مجهوداتنا إلى الشرق العربي أولاً ، فنوحد أبناءه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم أولاً ، وهذا أمر لا يتم إلا بتوحيد الثقافة ونشر العلوم والمعارف ، والعمل لغاية واحدة ، ألا وهي تأسيس اتحاد عربي شامل ، يساعدنا على ذلك وحدة اللغة العربية . وعليه فاني أرى وأظنني مصيباً في رأيي هذا أن توجيه قادة المسلمين بمجهوداتهم إلى إنشاء جامعة إسلامية ، قبل الجامعة العربية والجامعة الشرقية ، تبذير في قوى المسلمين لا ترجى منه فائدة . إذ كيف تقدر أن تجمع بين العقلية العربية والعقلية الفارسية ؟ أو بين إحدى هاتين

العقليتين أو كليهما معاً ، والعقليات الهندية ، والأفغانية ، والتركية ، وغيرها على اختلاف ثقافات أهلها وتعدد ميولهم السياسية ما لم تأمن جانبهم ؟ أيجب للمسلم الهندي أن يغادر أخاه البرهمن الذي تجمعه به لغة واحدة وعادات واحدة وثقافة واحدة ، ويولى وجهه شطر المسلم العربي الذي لا يعرف كيف يتفاهم معه ؟

يقال مثل هذا عن الفارسي والأفغاني والتركي وغيرهم ، فكل أمة تدّين بالاسلام لها ميولها السياسية وتزعاتها العمرانية التي تختلف كل الاختلاف عن التي لغيرها . ومثالتنا على ذلك أُمم أوروبا التي لم تمنعها المسيحية من التصادم وإشهار الحرب ضد بعضها ، بل والائتم الاسلامي نفسها التي نرى تاريخها مشحوناً بالحروب الداخلية مما هو مشهور ومعروف .

نحن الآن في عصر ضعفت فيه المؤثرات الدينية — إلا عند من عصم ربك — وأصبحت العوامل الجنسية واللغوية الأساس الأول في نشوء الأُمم . ولهذا نرى أوروبا المستعمرة تبدل كل مجهوداتها في تقوية التفرقات الدينية في الشرق ، والقضاء على الوحدات الجنسية واللغوية ، تفرح لتقدم الأُولى وترتعد فرائضها من ذكر الثانية ، تهال وتكبر كلما وجدت الاختلافات تعمل عملها الهدام في جسم الشرق ، وتعد العدة لزرع بذور الشقاق والانفصال بين أبناء اللغة الواحدة ، وخصوصاً العرب .

إننا نراها تعمل تارة للقضاء على لغتنا ، وتارة لوضع الحواجز بين قطر عربي وآخر . إنها تعمل كل هذا لأن شبح الاتحاد العربي يتمثل أمام أعينها شبحاً خيفاً هائلاً ماسكاً بيده سيف القضاء على الاستعمار .

وبعد ، فأنت لا تقصد من تسجيل ما قدمنا ، تثبيط الهمم عن إجابة الدعوى إلى المؤتمر والعمل على نجاحه بكل السبل ، وإنما تقصد إلى تمهيد السبيل للمجتمعين والذين سيجتمعون في المؤتمر إن شاء الله لتعرف مختلف الميول والآراء ، والعمل على تحقيق الصالح والأفئع ، والبده بالأهم المجدى الذي لا خلاف فيه .

فأما مسألة الخلاف التي تردد ذكرها على أفواه الكثيرين فمسألة لم تتحقق من وجودها في برنامج المؤتمر بعد ، وقد نقاها كل الذين اتصلنا بهم من أصحاب الشأن . ولهذا فأنتا نسك عن إبداء رأينا فيها ، حتى تقوم لدينا الأدلة على صدق ما يزعمون .

والله وحده نسأل أن يقي المسلمين شر الفتى ، وتعدد التفرعات ، إنه وحده بتحقيق

السؤال كفيل

عبد العزيز الاسلامبولي